

التشبيه التمثيلي في الحديث النبوي

(مع خلاص صحيح البخاري)

الدكتور
محمد السيد عبد الرزاق موسى
أستاذ مساعد البلاغة والنقد
كلية التربية - جامعة المنصورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ...

وبعد..

فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوتي روائع البيان وحسن البلاغ ، أدبه ربه فأحسن تأديبه فكان مثالا يحتذى به في كل شيء ... والحديث النبوي الشريف يظهر في أعلى درجات التفوق العلمي والأدبي... نص يرتفع إلى أعلى البيان البشري وكيف لا وقد كان صلى الله عليه وسلم أفصح العرب ، نزل القرآن المعجز على قلبه وتحرك أول ما تحرك به لسانه الشريف ، فنساقط أمامه أمة البيان وأرباب اللغة ..

وقد أوتي النبي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، فكان من كلامه ما صار مثلاً سائراً يجمع المعاني العظام في أقل الكلام !! ، فمن ذلك قوله : الآن حمى الوطيس ، وقوله : مات حنظل أنفه ، وقوله : يا خيل الله اركبي وقد قال فصحاء العرب من بليغ الكلام ما قالوا ، فلم يصّر كلامهم مستعملاً أو مثلاً سائراً !!

وإن كان الكلام النبوي قد تميز بقلّة عدد الحروف وكثرة عدم المعاني فإنه قد " جُلّ عن الصنعة ونَزّه عن التكلف ، فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التقدير ، واستعمل المبسوط في موضع البسيط والمقصود في موضع التصر ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق" (١)

فهذا منطق النبي صلى الله عليه وسلم يتم عن استواء شخصه وكمال عقله هذا هو المنطق الذي يسم بالفكر قيل أن ينطلق إلى الفهم ، وأن العقل فيه من وراء اللسان فهو غالب عليه ، مصرف له ، حتى لا يعتريه لبس ولا يتخونه نقص ، وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلاسة النظم ، إلا صفات كانت فيه

(١) الحافظ - بيان والدين - تحقيق محب الدين الخطيب - مطبعة الفتوح - القاهرة - ١٣٣٢ هـ - ١٩١٢

صلى الله عليه وسلم عند أسبابها الطبيعية ، لم يتكلف لها عملاً، ولا ارتاض من أجلها رياضة بل خلق مستكمل الأداة فيها ، ونشأ موفر الأسباب عليها " (١)

مشكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث في وجوب التعرض لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه نصاً أدبياً بليغاً يقوم على التصوير الفني لعالم المحسوسات والغيبيات تصويراً رائقاً مستخدماً العلاقات والوسائل المختلفة من القاطط وعبارة وموسيقى وقصة ، ليضع القارئ أمام واقع حقيقي ملموس يرى فيه مواطن الجمال في التعبير الأدبي .. وكان التشبيه التمثيلي أحد هذه الألوان البلاغية والوسائل البيانية الرائعة التي أطلتها النبي صلى الله عليه وسلم لتخاطب حواس المتلقي ونهز وجدانه ومشاعره وتربي ذوقه .

منهج البحث :

إن الناظر لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم يرى فيها المعاني العميقة المترامية الأطراف التي تحمل في طياتها الأغراض والأساليب ومعالجة خبايا النفس والمجتمع ، وقد رأيت - بتوفيق من الله تعالى - أن يكون منهج البحث على النحو الآتي :

أولاً : مكانة التشبيه :

وقد وقفت مع أقوال البلاغين في التشبيه التمثيلي ومكانته في الأسلوب الأدبي وقيمته البلاغية ودوره الفعال في العبارة والنفس .

ثانياً : التشبيه التمثيلي وأغراضه البلاغية :

وكانت هذه الوقفة مع بعض الأحاديث التي حملت التشبيه التمثيلي في طياتها وبيان الغرض البلاغي من وراء هذا التشبيه كالترزين أو التحقير أو بيان الفضل... الخ.

(١) مصطفى صادق الرافعي - اعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط١ - مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٩٤٥ - ص ٣٢٩

ثالثاً : الخصائص الفنية للتشبيه النبوي :

وقد وقفت مع اللغة والأسلوب الذي استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في التعبير عن الموضوع وكذا - أيضاً- التصوير الموسيقي ، والتشبيه التمثيلي من خلال الوعاء القصصي .

ثم أخيراً الخاتمة وقد تضمنت أهم نتائج البحث .

أولاً : مكانة التشبيه :

إن التشبيه من الألوان البلاغية التي يستعين بها البلاغي لكي ينقل فكرته في وضوح ورسوخ ، ويستطيع أن يعبر عما يجيش في نفسه في طرافة بليغة ومقدار هائل من الخيال الرحب الذي يعيش فيه المتلقى ، مما يجعله يحلق في أفلاك المعنى مجسداً كانه صورة حية واقعية ..

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن التشبيه التمثيلي – بصفة خاصة – يعمل على وجود تلك المعاني والإحساسات الرائقة لما يحدثه في نفس من رواج فكري واعتمال نفسي واسع المجال ... وهو أسلوب بليغ عظيم الأثر ، عرفه العرب في أشعارهم وكلامهم وتوسلوا بهذا اللون البيهتي في رسم صورهم الفنية وإثبات ما يريدون إثباته من معنى عميق ..

وقد جاء القرآن الكريم حاملاً الكثير من هذا اللون البلاغي البديع ، وخاطب الله به العرب ، خاطبهم بما عرفوه والفوه ومارسوه .. ومن ذلك يقول الله تعالى " مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (سجدة ١٨)

فهذا تشبيه تمثيلي رائع يبين حقيقة هؤلاء الأولياء الذين اتخذهم الكافرون من دون الله فهم قد اتخذوا الأوثان درعاً وقوة ينتصرون بهم من دون الله وهي من الضعف بحيث لا تستطيع أن تنصر نفسها ، فكانوا كالعنكبوت التي اتخذت بيتاً من خيوطها الواهية الضعيفة ، وهي تعتقد أن ذلك البيت يحميها .

إنه " تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود . الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين ، ولا يعرفون إلى أين يتوجهون ، ماذا يأخذون وماذا يدعون " (١)

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - ط ٢٥ - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٦ - ٢٧٣/٥

والصورة التشبيهية تعمل على إيجاد فضاء رحب من الخيال وهو خيال طلق، ينطلق في حرية مطلقة الحدود والحواجز ، ولكنها في نفس الوقت حرية خيالية مقيدة بدرجة معينة من تناسب الواقع والبيئة والحياة بأسرها ، وهذا حتى لا ينقلب الخيال إلى وهم لا يفرق بينه وبين أوهام أو خيالات المجانين الذين يُخلّقون في عالمهم بخيال مطلق يفتقد الهوية والخيوط المترابطة المتناسقة .

والتشبيه التمثيلي له مزية خاصة في إثراء الخيال وإطلاقه ، وهو قد تميز عن التشبيه الضمني في عصر متأخر من تاريخ البلاغة ، " فقد كان القدماء - قبل شرح التلخيص - يجعلون التشبيه تمثيلاً إذا كان وجه الشبه فيه عقلياً ، سواء أكان منتزعا من متعدد أم لم يكن كذلك ، ولكن المتأخرين منهم أخذوا يحددون هذا الضرب من التشبيه تحديداً صارماً كان من شأنه أن يفصل بينه وبين التشبيه الضمني ، واستقروا على رأي موحد في حد التشبيه التمثيلي فهو عندهم تشبيه وجه الشبه فيه منتزع من متعدد ، سواء أكان عقلياً أم حسياً ، كما نرى في قول بشار :

كَلَنْ مُنَارِ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَاسِيَاًفْنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ

الشاعر لا يعقد صلة مشابهة بين جزء وآخر ، ولكنه يعقدها بين تراكيب العناصر في المشهد الأول وتراكيبها في المشهد الثاني " (١)

- وهذا الممتبى يشبه الأسد بطبيب يترفق بالمريض ، يقول :

يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقاً مِنْ بَيْنِهِ فَكَأَنَّهُ أَسَى يَجْسُ عَيْلِيلاً

فقد عقد الشاعر صلة تشبيهية بين هيئة الطبيب في حركته الهادئة الحانية وهو يجس المريض برفق ، وبين هيئة الأسد في حركته الهادئة المتزنة وهو يمشى مزهواً بنفسه، وكأنما يترفق بالثرى أو يتودد إليه .

(١) د . أحمد سام - الصورة بين البلاغة والفن - ط٢ - القاهرة - دمشق - ١٩٨٤ ص ٦٩

- وقد اختلف البلاغيون في كون التشبيه معدوداً في المجاز أو غير معدود ، فمنهم من قال بأنه حقيقة وأولهم عبد القاهر الجرجاني ، وقال الزركشي والمحققون على أنه حقيقة ... ولا يعد التشبيه من علم البيان عند مدرسة السكاكي ، وإن بحثه فيه ، لأن دلالاته وضعية ، وعدّه كثير من البلاغيين ركناً أساسياً في بحوث البيان ... وذهب آخرون إلى أن التشبيه مجاز ، كابن الأثير وابن رشيق وابن قيم الجوزية ، والحق - كما يذكر الدكتور أحمد مطلوب - أن التشبيه مجاز ، لأنه يعتمد على عقد الصلة بين شيئين أو أشياء لا يمكن أن تفسر على الحقيقة ، لو فسرت كذلك لأصبح كذباً ، وهو الفن الكثير الاستعمال في كلام العرب" (١٠)

وعبد القاهر الجرجاني يعتبر في التشبيه التمثيلي وجهاً غير حقيقي ولو كان مفرداً ، ولا بد عنده من التآول ، وقد ذكر فتاً آخر يجمع بين غرابة التشبيه والتمثيل ، " والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا يتسرع إليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم عند بديهية النظر إلى نظيره الذي يشبهه به ، بل بعد تثبيت وتذكر وفلي للنفس عن الصور التي نعرفها " (١١)

ثانياً : التشبيه التمثيلي وأغراضه البلاغية :

قد يأتي التشبيه للمبالغة أو الإيجاز أو التوضيح أو التزيين أو غير ذلك مما تذكره لاحقاً .. وهذا وإن كان أمراً أساسياً في الإتيان بالتشبيه إلا أن هناك ما هو أهم وأعمق في تأليف الصورة التشبيهية ، وهذا هو خروجه عن طبع لا عن تكلف ... فالتكلف - إذن - يفسد الصورة البلاغية عموماً ، والصورة التشبيهية لا تعد راقية إلا

(١٠) د. أحمد مطلوب - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها - المجمع العلمي العراقي - ١٩٨٦ - ص ١٧٢ ، ٢٢١

(١١) عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة - ط. دار المدني بغداد - ١٩٩١ - ص ١٥٧

إذا جاءت خالية منه .. ومن الطبيعي أن يصدر هذا اللون البياني نتيجة إصاال الفكر والعقل الذي يحمل العرض البلاغي في نفس المتكلم عليه السلام ، فيوجه التصوير وجهته التي يوليهها ..

• ونقف فيما يأتي مع هذا التشبيه التمثيلي وأغراضه البلاغية :

أولاً : التزيين أو التحقير :

قد تتطلق الصورة البيانية حاملة التشبيه التمثيلي من أجل إبداء زينة الشيء ، فيقع الترغيب في النفس لكي تقبل على ذلك الأمر المزين ، فتتفعل به وتتمسك بفعله ، أو تعمل تلك الصورة على إظهاره في صورة قيحة تنفر منها النفس وتقتصر منها الأبدان ، فيقع في النفس الترهيب من فعله .

كنونه عليه السلام : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ، ريحها طيب وطعمها طيب ؛ ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ، لا ريح لها وطعمها حلو ؛ ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن ، مثل الریحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ؛ ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظل ، ليس لها ريح وطعمها مر " (١) .

وفي رواية شعبة عن قتادة إضافة العمل إلى القراءة في حق المؤمن ، فقال عليه السلام : " المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة .. " (٢) .

فوقع التمثيل في جانب المؤمن القاريء بالأترجة ، وغير القاريء بالتمر ، والفاجر (أو المنافق) القاريء بالريحانة ، وغير القاريء بالحنظل . وهو تمثيل جمع بين الطعم المختلف والرائحة المختلفة من شأنه أن يرتفع بمكانة المؤمن ، ويخفض من مكانة المنافق ويحط من شأنه وهيبته ، إذ أنه قد جمع في التصوير بين ما ينطوي

(١) ابن جرير طبرستان - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - مراجعة وتصحيح : محمد فؤاد عبد الباقي ومبني الخطيب - ط ١ - دار إحيان التراث - القاهرة - ١٩٨٧ - ج ٨ - ص ٦٨٤ .
(٢) لفرجه البخاري - لهذا - في فضل قرآن - ج ٨ - ص ٢٢٨ .

عليه الداخل ، وما يظهر من سميت أو شكل خارجي .. وقد تكررت أدوات التمثيل بيسن مثل والكاف و دخول أداتين علي بعضهما (كمثل) ، وهو يأتي في مقام التذكير أو التنبيه علي أمر خطير يمس حياة الإنسان أو آخرته أو ما إلي ذلك ، وكثيراً ما ورد هذا في القرآن الكريم في مثل تلك المقامات .

• كقوله تعالى :

" مَثَلُهُمْ كَمِثْلِ الدُّخَانِ الَّذِي اسْتَوْقَدْنَا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ " (١) .

• وكقوله تعالى :

" وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْيَتِيمِ الَّذِي يَدْعُو بِمَا لَا يُسْمِعُ إِلَّا دُعَاءً وَتَدَاءً .. " (٢) .

• وكقوله تعالى :

" فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَاَصْبَاهُ وَابِلٌ .. " (٣) .

• وقوله تعالى :

" مَثَلُ مَا يَنْفَقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ " (٤) .

• وقوله تعالى :

" فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ .. " (٥) .

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٦ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١١٧ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .

ونجد كلام النبوة يقتضى لثر هذا الإعجاز في دقة وتمكن من الفصاحة والبلاغة ، فأتى بهذا التمثيل بتلك الأدوات في مقابلة بديعية بين صورتى المؤمن وصورتى المنافق أو الفاجر .

وجاءت ((الحكمة في تخصيص الأثرجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيبسب الطعام والريح كالنفاحة ، لأنه يتداولى بقشرها وهو مفرح بالخاصية ، ويستخرج من حبها دهن له منافع ، وغلاف حبه أبيض فيتناسب قلب المؤمن)) (١) .
وفيها — أيضا — من المزايا كبر جرمها وحسن منظرها وتفریح لونها وابن ملمسها .

وتتجلى في الحديث نكتة بلاغية أخرى تظهر في الربط بين الإيمان والطعم ، والقراءة والريح الطيب ، وذلك لأن الإيمان الصق بالمؤمن وألزم له ، إذ يمكن تحصيل الإيمان دون تلاوة ، وكذلك الطعم أيضا يمثل أساس الشيء وجوهره ..

وهذا التمثيل قد أظهر المؤمن في صورة حسنة وسمت طيب ، من شأنه أن يسأل الناس ويألفهم ، وعلى الجانب الآخر أظهر صورة الفاجر أو المنافق في صورة قبيحة وهينة مشينة من شأنها أن تنفر الناس منه .. وهذا التمثيل — إضافة لذلك — قد عمل على تقريب المعنى للإيهام وإخراجه في صورة واضحة جلية .

وصورة بيانية أخرى يبين فيها النبي ﷺ صورة المنافق والبخل ، وذلك عن طريق التشبيه التمثيلي في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :
" مثل البخل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثيبيهما إلي تراقيهما فأما المنافق فلا ينفق إلا سبغت — أو وفرت — علي جلده حتى تخفى بئانه ومعفو أثره . وأما البخل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقه مكائها ، فهو يؤسعها ولا تنسع " (٢) .

(١) فتح الباري ١ / ٨ .

(٢) فتح الباري ٢ / ٣٥٨ .

فهذا تمثيل لبركة المال ونمائه بالصدقة ، ومحققه وهلاكه بالبخيل ، وتبدو صورة الجواد إذا أراد إخراج الصدقة ، فتجده قد انفتح لها صدره ، وطابت نفسه فتوسعت في الإتفاق .. أما البخيل فتظهر صورته القبيحة عندما تحذنه نفسه بالصدقة ، فنراه شحيحا قد ضاق صدره وانقبضت يده .

« قال الطيبي : ((قيد المشبه به بالحديد إعلاما بأن القبض والشدة من جملة الإنسان ، وأوقع المتصدق موقع السني لكونه جعله في مقابلة البخيل إشعارا بأن السخاء هو ما أمر به الشراع وتنب إليه من الإتفاق لا ما يتعانه المترفون)) (١) .

وهذا التمثيل الذي صور به النبي ﷺ للبخيل والمتصدق هو مثل لتشبيههما برجلين يلبسان قميصا جريبا أو درعا من حديد .. فشيء المنفق للجواد بمن لبس درعا سابغة فسترته كل جسده أما البخيل فقد شبهه برجل معلول يدين إلى عتقه ، كلما هم بلبسها اجتمعت في عتقه ولزقت بترقوته .. وقد جعل الجبة من الشدي إلى التراقي .

((وهذا من أبدع ما في الحديث ، لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته ، وإنما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد ، فهنا يسط الكريم بسطه الإنساني ، أما البخيل فهو (يريد) لأنه إنسان ، الإرادة عمل عقلي لا أكثر فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها ، فهي مستعصية متماسكة ، فهو يوسعها فلا تتسع)) (٢) .

وقد جرى الأسلوب في الحديث الشريف على طريقة الحديث السابق من استخدام أداتي التشبيه : (كـ - مثل) ، ثم أجراه مجرى التشويق في البدء بالإبهام والعموض عن طريق التثنية والتكثير في (رجلين) ، ثم الشروع في التوضيح شيئا ما : (عليهما جبتان ..) ثم التفصيل : فلما المنفق .. ولما البخيل ..

(١) فتح هجري ٢ / ٣٦٠ .

(٢) مصطفى صديق قرطبي - وحى القيم - ٢٥ - دار المعرف - القاهرة - ١٩٨٢ - ١١ / ٢ .

وقد وقع في هذا النص الشريف إثارة ذهنية أخرى عن طريق النشر علي غير ترتيب اللف فقد كان استهلال الكلام بالبخيل ثم بالمنفق ، وفي النشر والتفصيل ذكر المنفق أولا والبخيل ثانيا .

وقد زخرت الصورة بحيوية الحركة ورسم نقلها في ارتداء الدروع الحديدية حتى كأنها مائلة أمام الأعين ففائدة التشبيه من الكلام هي ((لك إذا مثلت الشيء بالشيء ، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المثل به أو بمعناه ، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه ، أو التنفير عنه ، ألا ترى أنك إذا شجيت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبثا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها ، وكذلك إذا شجيت صورة شيء أقيح منها كان ذلك مثبثا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها)) (١) .

ومما جاء من كلام النبوة في مدح المؤمن وإظهاره في صورة حسنة تهش لها النفس وتانس إليها ما شبهه بالثجيرة ، يقول :
" إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ما هي ؟
فوقع الناس في شجر البوادي . قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ،
فاستحييت . ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله . قال : هي النخلة " (٢) .

بدأ بالمشبه به لإثارة ذهن بغموضه وخفائه ، ثم أتى بالمشبه ثانيا من أجل التشويق .. واختار الشجرة لفظها ثم العدول عنها إلى لفظ النخلة فيه مزيد من التشويق وتصوير المعاني لترسخ في الأذهان وترداد قهما وإيضاحا .

وهذه النخلة التي ضرب الله بها المثل في القرآن الكريم في قوله تعالى :
" وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ
حِينٍ بَلَدَيْنِ رِيحًا .. " (٣) .

(١) ابن كثير - المثل السائر - تعليق محمد بن عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٩٥ - ج ١ - ص ٢٧٨ .

(٢) فتح الباري ١ / ١٧٥ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٤ .

فتظهر صورة الشجرة في الحديث الشريف بطول قامتها وارتفاعها في علان السماء ، وهي مع ذلك تضرب بجذورها في باطن الأرض في رسوخ وثبات ، وهي متماسكة الأوراق دلالة على تضاريتها ودوام كسوتها وشرها .. والربط بين ذلك وبين هيئة المسلم في ثباته ورسوخ عقيدته وعلو همته ومنزلته ، فلا تسقط له دعوته ويأتي خيره وبركته في كل حين بلئن ربه .

• وما جاء — أيضا — في مدح المؤمن وتصويره بالخامة من الزرع ودم الفاجر وتصويره بالأرزة الصماء ، وقوله ﷺ :

" مَثَلُ الْمُؤْمَنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ : مَنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَّتْهَا ، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّى بِالْبَلَاءِ . وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَةِ صَمَاءٌ مُعْتَدِلَةٌ حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ " (١) .

فتبدو براعة الاستهلال بالحديث عن المؤمن أولا من أجل إعلاء الهمة ، ولأني في جانب المؤمن بادتي التمثيل : كـ — مثل ، ولم يأت في جانب الفاجر إلا بالكاف ، لأن فيما تقدم الدلالة والكفاية ، وقد أورد البخاري رواية أخرى للحديث :

" مَثَلُ الْمُؤْمَنِ كَالْخَامَةِ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالْأَرْزَةِ " .

والخامة : الزرع أول نباته يكون لنا ضعيفا فرسم رسول الله ﷺ صورة المؤمن بتلك الفترة الزمنية من عمر الزرع ، فوضعنا أمام لوحة فنية جمعت بين خطوط الصورة للكثيفة ، لتخرج بصورة حية ماثلة أمام العين ، نلمس فيها ليسن الخامة وتضارستها وجفاف الأرزة وصلابتها وقسوتها ، فنرى تلك السنابل الصغيرة وقد كففتها الريح ، فصالت يمينا وشمالا حتى تقارب السقوط ، ثم تمتد ، بينما الأرزة (١) (صورة الفاجر) صماء صلبة شديدة يقصمها الله بالهلاك .. وقد اختار النبي ﷺ الأرزة تمثيلا للفاجر ، لأنها في الغالب تشتمل على شكل جميل ومنظر بدیع ولكنها قليلة النفع الغذائي أو معدومة الخير ، وهكذا حال الفاجر في مظهره وجوهره ، كما أنها — أي الأرزة — تتحطم إذا واجهتها الريح ، بخلاف السنبلة فهي ثابتة كثبات المؤمن وصبره عند التوازل .

(١) فتح الباري ١٠ / ١٠٧ .

(٢) بفتح الهمزة وسكون الراء ، وقيل بكسر الهمزة ، وهو شجر الصنوبر ، وقيل : الأرز .

والحديث تمثيل لحال المؤمن وحال الفاجر ، فالمؤمن ((حيث جاءه أمر الله انطاع له ، فإن وقع له خير فرح به وشكر ، وإن وقع له مكروه صبر ورجا فيه الخير والأجر ، فإذا اندفع عنه اعتدل شاكرا ، والكافر لا يتفقه الله باختباره ، بل يحصل له التيسير في الدنيا ليتعسر عليه الحال في المعاد ، حتى إذا أراد الله إهلاكه قصمه ، فيكون موته أشد عذابا عليه وأكثر ألما في خروج نفسه)) (١) .

- هذا وقد عبر النبي ﷺ في هذا التمثيل بلفظ (المؤمن) ، بينما عبر في الحديث السابق بلفظ (المسلم) ، وفي هذا نكتة بلاغية تطلبها السياق ، واستلزمها المقام ..
فقد عبر بلفظ (المسلم) في الحديث السابق لأن الإسلام عمل الجوارح وأداء لأركان كما جاء في الحديث الذي سئل فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان .. وعمل الجوارح ثمرة الإسلام الصحيح ، فلذلك مثله بالنخلة العالية الثابتة التي تثمر في كل حين ولا يسقط ورقها ..

أما للتعبير بلفظ (المؤمن) قد جاء في مقام التمثيل بالسنبلة أو الخامة الرقيقة الثينة ، لتسي تعرض لحوادث الريح ، كما يتعرض المؤمن الهين للين لابتلاءات الله .

- ومن تصويره ﷺ للصالح والباطل قوله :
"مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْمُسَوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِذَا نَافَخَ يَنْفُثُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَإِذَا تَبَتَّاعَ مِنْهُ ، وَإِذَا نَجَّدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِذَا نَافَخَ يَنْفُثُ رِيحًا كَرِيحًا ، وَإِذَا تَبَتَّاعَ مِنْهُ ، وَإِذَا نَجَّدَ مِنْهُ رِيحًا كَرِيحًا " (٢) .

فهذا تمثيل على الإجمال ثم التفصيل إثارة للأذهان والتشويق ، وهو تفصيل جاء على ترتيب الإجمال .. فحامل المسك يمثل الجليس الصالح فيكثر خيره وتعم بركته ، ونافخ الكير يمثل الجليس المسوء فيكثر شره ويعم قبحه ، ولذلك حذف كلمة الجليس في جاتبه استهجانا وهوانا .. وتكرار (إما) التفصيلية في سياق الحديث تعطي دلالة على تعدد خير الصالح ،

(١) فتح هادي ١٠ / ١١١ .
(٢) فتح هادي ٩ / ٥٧٧ .

وكثرة شر السيء ، فالحديث يحمل صورتين متقابلتين ، كل صورة تظهر ضدها قسي جلالة ووضوح ..

وتجدر الإشارة هنا إلى أن اختيار حامل المسك تحديداً ليمثل الصالح ، وتنافخ الكبير تخصيصاً ليمثل السيء ، لأن مقتضى الكلام بوجه النفس إلى خطورة ذلك الجليس الذي يفيد بجلسته النوم والاستمرارية ، وهو ما ينشأ عن المسك أو الكبر ، ولذلك عبر النبي ﷺ بقوله: (الجليس) وهي صيغة للمبالغة على وزن فعيل ، فيظهر أثر كل جليس في جليسه .. والريح الطيب يرمز إلى ريح الجنة التي يساعد الجليس الصالح على الوصول إليها ، بينما الإحراق والريح الخبيثة ترمز إلى نار جهنم التي هي طريق الجليس السيء .

• ثانياً : بيان الفضل :

قد يعتمد النبي ﷺ إلى بيان الفضل ترغيباً في فعل الخير وحثاً على طلبه ، إذا ظهر قسي صورة حية تموج بالحركة وتزخر بالألوان ، ومن ذلك ما قاله النبي ﷺ في بيان فضل من عَلم وعَلَّم :

" مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيعٌ قَبْلَ الْمَاءِ فَانْتَبَتِ الْكَلَأُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكِ الْمَاءِ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَاقُوا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ ^(١) ، لَا تَمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ قِسِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ " ^(٢) .

^(١) قِيعَانٌ : جمع قَاعٍ وهي المساءة التي لا تثبت .

^(٢) فتح الباري ١ / ٢١١ .

المشبه : الهدى والعلم ، والمشي به الغيث الكثير ، وعثر عنهما بـ مثل — كـ — مثل .
والمعنى يتجسد في صورة محسوسة تزخر بالحياة والحركة في لوحة فنية جميلة ، حيث ضرب
النبي ﷺ مثلاً للشيعة وما جاء به من الدين بالغيث ، فوقع الناس من ذلك على ثلاثة أصناف :

الأول : العالم العامل المعلم ————— الأرض الطيبة الخصبة
أخذ الدين فأثمر العمل الصالح أخذت الماء وشربته فأثمرت الخيرات

الثاني : العالم المعلم غير العامل ————— الأرض الجدياء
جمع العلم والدين ولم يثمر عملاً صالحاً أخذت واحتفظت به على سطحها فلم
تثبت نباتاً ولا ثمرأ ولكن الناس التفتعوا بالماء

الثالث : جاهل معرض ————— الأرض السبخة أو الملساء
لا يسمع ولا يعمل لم تقبل ماء ولم تنفع أحداً

فإنراى للأعين تلك الأصناف من الناس ، ويظهر مدى نفعهم أو ضرر بعضهم ، وتظهر
اللوحة في جمال فني بديع حاملة تلك الأراضي بزيئة بعضها وجذب الآخر ، وسباغ الثالث ،
فبرسح المعنى في النفوس عن طريق ذلك التمثيل الرائع ، وكأنه يخطه بيده ليرسمه في الواقع
لتعيش معه الأفهام في تجسيد قائم ..

- وكان من بلاغة هذا الحديث ما يأتي :

يثار كلمة (الغيث) على الماء أو المطر مثلاً للتعبير عن حاجة الناس إليه ، فقد جاء
ليغيثهم في وقت عصيب ، والتعبير بالعشب بعد الكلال من باب ذكر الخاص بعد العام زيادة في
الإيضاح والتأكيد ، فالكلأ يشمل النبات الرطب واليابس ، والعشب يطلق على الرطب فقط .
إجمال كلمة (أرضاً) وإيهامها ثم التفصيل والتوضيح من أجل ترسيخ المعنى وتقريبها
للأفهام .. وعبر عن الطائفتين الأوليين بقوله عن الأول : فكان منها نقيّة ، وقوله عن الثاني :

وكانت منها .. بينما عبر عن الطائفة الثالثة بقوله ﷺ : وأصابني منها طائفة أخرى ثم أجمل المعنى آخرًا ، فجمع الطائفتين الأوليين في قوله : (فذلك مثل من فقه ..) وذلك لاشتراكهما في الخير ، بينما أورد الطائفة الثالثة في قوله : (ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ..) لأنها طائفة مذمومة لم تنتفع ولم تنفع .

قوله ﷺ : (ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله ..) كناية عن الإعراض أو عدم الانتفاع أو النفع ، وهي ترسم صورة المعرض في ذلة ومهانة حتى يظهر ذلك في خفض رأسه.

• ومن التشبيه التمثيلي في بيان الفضائل ، ما جاء في بيان فضل المدينة المنورة في قوله ﷺ :

” إنما المدينة كالكير ، تنقي خبثها وينصع طيبها “^(١) .

فالمعنى : أنه يبقى في المدينة أصحاب الإيمان الخالص ، ويخرج من لم يكن كذلك ..^(٢) فهي تقوم بعملية تمحيص وتمييز للقلوب الصانقة ، فتخرج الخبيث ، كما يشتعل النار في الحديد بفعل الحداد ليميز رديء الحديد من جيده .. أما اختيار (الكير) ليكون المثل به ، ففيه تصوير بديع يقوم بتمثيل حال المدينة في صورة قوة تنقي الخبيث في شدة ، كما ينفي الكير خبث الحديد ، فيبقى الطيب الناصع .

ثالثًا : بيان الصفة ومقدارها أو الحالة لتقريبها للأفهام :

لما أراد النبي ﷺ بيان مقدار النبوة الخاتمة ومكانة الشريعة المتممة جاء بصورته البيانية الآتية ممثلة في التشبيه التمثيلي .

^(١) فتح الباري ١٣ / ٢١٣ .

^(٢) قال : إن هذا شخص بزمان النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقال : إنه شخص بزمان محمد ، وقال : يمثل الزمانين ، () وقصد خسر من المدينة بعد النبي (صلى الله عليه وسلم) معًا ولو عبدة وابن مسعود وطائفة ثم على وطائفة والزبير وعاصم وآخرون وهم من طيبر القلبي . قال على أن قوله بالحديث يخص من ليس بدين ولا دين ولا دين . فتح الباري ١ / ١٠٦ . ()

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين " (١) .

فتبدو الصورة مجسمة في ذلك البناء من حيث حسنه وجماله إلا ذلك الفراغ الناسي في تلك الزاوية من زواياه نتيجة غياب مقدار لبنة واحدة .. ثم تبدو الحركة الممتزجة برسم الدهشة والتعجب في طواف الناس من أجل تلك المشهد ..

والمشبه به واحد والمشبه جماعة ، لأنه جعل الأنبياء كرجل واحد (لأنه لا يتم ما أراد من التشبيه إلا باعتبار الكل) وكذلك الدار لا تتم إلا باجتماع البنيان ، فكأنه شبه الأنبياء وما بعثوا به من إرشاد الناس ببيت أسست قواعده ورفع بنيانه وبقي منه موضع به يتم صلاح ذلك البيت فالمراد هنا النظر إلى الأكمل بالنسبة إلى الشريعة المحمدية مع ما مضى من الشرائع الكاملة (٢) .

والتمثيل في الحديث قد حمل — أيضا — أداتين للتشبيه : (كـ — مثل) ، وفيه دلالة على أهمية الرسالة الخاتمة ودورها في الكمال الذي تمت به الشرائع ، وتأكيدا على ذلك فقد استعمل الكلام بالتوكيد بـ : (إن) والبدائية بالكلام عن شخصه ﷺ أولا ، فلم يقل : مثل الأنبياء من قبلي ومثلي .. مع أن ذلك هو مقتضى السياق بالنظر إلى الترتيب الزمني ، ومجىء الأنبياء قبل النبي محمد ﷺ في تلك المرحلة الزمانية ، وفي هذه البدائية إثارة ذهنية ولفت للانتباه إلى محور الكلام وهنقه .

— وعلى الجانب الآخر يضرب النبي ﷺ تمثيلا رائعا ، يبين فيه حالة المرأة وما تتطاول عليه من أحوال ، وذلك من أجل توضيح عالمها النسائي الإنساني للرجل ، فتدوم العشرة بالمعروف بينهم .

(١) فتح بقري ١/ ٦١٥ .

(٢) فتح بقري ١/ ٦١٥ .

يقول النبي ﷺ: " المرأة كالضلع: إن أقمتهَا كسرتهَا ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج " (١) .

يقال: في العود عوجٌ ، وفي الراي عوجٌ (٢) . والعوج: الانعطاف فيما كان قائما فمال كالرمح والحائط ، والعوج في الأرض: أن لا تستوي ، عوج الطريق وعوجه: زيقه . وعوج الدين والخلق: فساده (٣) .

وضلع الشيء: اعوج حتى صار كالضلع ، وتمثيل المرأة به علي الإيهام ثم الشروع فسي للتفصيل ، بأنه لا يستقيم فيه بيان واف لأغوار النفس ومكوناتها .. فتذهب النفس مذهبيها فسي للتخيل وروية هذا الضلع يا عوجاجه ، ونري من يذهب منطلقا إلي الضلع ليجتهد فسي إقامته وإصلاح عوجه ، فإذا هو قد كسره (كناية عن سوء العشرة وملاحقها) ..

وشأن من يواجه الشيء الصلب في طريقه ولا يستطيع له شيئا أن يتصرف معه بحكمه فيتخطاه دون جهد ، وذلك مداراة الرجل لزوجته لتستقيم الحياة . ولعل الحكمة في اختيار التشبيه بالضلع دون سائر الأتباء الحسية المحيطة بالإنسان في الكون: أن الضلع يمثل الصلابة والشدّة ، والضلع مع صلابته وقوته واعوجاجه يعيش بداخل كل إنسان ، فهو يشتمل علي أربعة وعشرين ضلعا ، وهو مع ذلك يعيش معها ولا يفارقها فتضطرب حياته ..

يقي أن نشير إلي لفظة بلاغية في كلام النبوة السابق ، حيث بدأ تشبيه المرأة بالضلع ، وهو شيء حسي قائم كالعود والرمح وما إلي ذلك ، فكان مقتضى السياق أن يسألني ختام الحديث بقوله: (وفيها عوج) بفتح العين لا بكسرها ، وفي ذلك إشارة إلي هذا العوج المعنوي المجبولة عليه .

(١) فتح الباري ٩ / ٦٦٦ .

(٢) الرمضاني: أسس البلاغة - تهذيب عمدة المصدر للغة - القاهرة - ص ١٥٤ .

(٣) ابن منظور: لسان العرب - دار الكتب العلمية - بيروت - مادة: عوج .

• رابعا : إزالة غرابة المشبه وإبرازه :

وربما جاء التشبيه التمثيلي في البيان النبوي لإزالة غرابة المشبه وإبرازه في صورة واضحة مما تعارف عليه الناس في حياتهم ومجتمعاتهم ، ومن ذلك قوله ﷺ :
 " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة .. " (١) .

• وقوله ﷺ :

" يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عقراء كقرصة نقي ليس فيها معلسم لأحد " (٢) .

فصورة الخبزة وهي تتحرك في انقلاب بين يدي الخباز صورة معروفة مأثوفة ، فاتخذها النبي ﷺ تمثيلا لحركة قلب الأرض في خاصيتها ، ويستفاد منه ((أن المؤمنين لا يعاقبون بالجوع في طول زمان الموقف ، بل يقرب الله لهم بقدرته طبع الأرض حتى يأكلوا منها من تحت أقدامهم ما شاء الله بغير علاج ولا كلفة)) (٣) .

وفي الحديث الثاني نجد الأرض هي المشبه ، ولكن المشبه به هذه المرة ليس خبزا يكفأ على وجه السرعة إعدادا للمسافر ، وإنما المشبه به هو : ((قرصة نقي)) أي الدقيق النقي من الشوائب ، فتبدو صورة هذا الدقيق في تصوعه وبياضه تتراءى أمام العين ، وقد اختار النبي ﷺ هذا التشبيه بالذات ، لأنه بدأ الحديث بالكلام عن الحشر وصفة أرضه ، فأراد إزالة غرابة شكلها الغريب بتمثيل نقاء الدقيق وصفائه ، وفي هذا تناسب دقيق بين هذا النقاء والبياض وما يقع في أرض المحشر من الحق والعدل وصفاء الحكم ونقاء القضاء ، وفيها — أيضا — رسم لصورة تلك الأرض من النقاء والطهارة ، فهي أرض منزهة عن الاستراف الآثام والركساب المعاصي ..

(١) فتح قهري ١١ / ٢٧٩ .

(٢) نفسه .

(٣) فتح قهري ١١ / ٣٨٩ .

ومن هنا تبرز بلاغة التشبيه من أنه ينتقل بنا ((من الشيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه ، أو صورة بارعة تمثله ، فكلما كان هذا الانتقال بعيدا قليل الخطور بالبال ، أو ممترجا بقليل أو كثير من الخيال ، كان التشبيه أروع للنفس وأدعى إلى إعجابها واهتزازها)) (١) .

- وفي مشهد من مشاهد القيامة يستعين النبي ﷺ بالتمثيل لإزالة غربة المشبه — أيضا — وذلك عندما يتحدث عن ذبح الموت ، ليخلد أهل الجنة في جناتهم ، وليخلد أهل النار — عساذا بالله — في نارهم ، يقول ﷺ :

”يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَيْشٍ أَمْلَحَ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ...“ (٢) .

فالموت يقع بين الناس في كل لحظة ولا يراه أحد ، ولا يستطيع أحد أن يتخيل له شكلا أو مظهرا ، فإذا أراد النبي ﷺ إخبارنا بفنائه يوم القيامة ، فقد أتى بهذا التشبيه لإزالة الغرابة تقريبا لأفهام ، ويختاره النبي ﷺ لهذا الوصف (أملح) لاشتراكه على البياض والسواد ، وهما صفتا أهل الجنة والنار ، بينما الكيش يوحي بالفداء ويرمز إليه . وهذه القصة النبوية التي تجسم تلك الشخصية المعنوية ، قد أدت دورا كنزور الشخصيات من البشر ، مما أسهم بجلاء في إبراز الموقف بأبعاده ومهابته .

- ويصور النبي ﷺ مشهدا حيا من مشاهد النار وهو نوع عجيب يحتاج إلى تمثيل حسي لإزالة غرابته ، حيث يعاقب صنف من الناس قد حاد عن الصواب وإن كان من الداعية إليه ، يقول :

”يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَلْفَتَابُهُ فِي النَّارِ ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ : أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَنْهَى ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَنْتُمْ“ (٣) .

(١) الهامس — جواهر البلاغة — دار ابن خلدون — الإسكندرية — ص ٢٢٢ .

(٢) فتح هجرى ٨ / ٢٨٢ .

(٣) فتح هجرى ٦ / ٢٨١ .

فالتصوير في الحديث (تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة . تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر والوجدانات ، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة)^(١) .

وتتفاعل خطوط اللوحة في ذلك المشهد تفاعلا سريعا متلاحقا ، حيث يبدأ المشهد بحركة المجيء التي ارتسمت عليها المهابة وأخذ النفوس من جراء بناء الفعل للمجهول (يجاء) ، فمما يليث أن يلقى في النار ، كما دلت الفاء التي قامت بهذا الدور المتلاحق ورسم سرعته في كل أجزاء المشهد : فتدلقن (والكلمة ذاتها تدل على سرعة خروج الشيء من مكانه) .. فيندور .. فيجتمع .. فيقولون ، ثم يخرج الجوار من بطن المشهد ليقرر أن الجزاء من جنس العمل ، فقد وضع الله - تعالى - لكل تكليف في الدنيا ما يقابله من ثواب أو عقاب في الآخرة ..

- وتأتي بلاغة التصوير المنتزعة من أكثر من متعدد لتجمع خطوط الصورة وأجزاء اللوحة بعضها إلى بعض في مشهد متكامل ، وقد (اختير له صنف من أصناف العذاب يجمع عليه الناس لما يرون به من البلاء ، ويعجبون من وجوده بينهم وكان في الدنيا ينهاتهم عن المنكر ويحذبههم في المعروف ، وليس له شغل الآن غير أن يجمع أمعاء وينور معها - وهي تقو من بين يديه - كما يدور الحمار بالرحى)^(٢) .

- وقد يأتي التشبيه التمثيلي في الكلام النبوي ليبين أجر أهل الجنة أو شيء من نعمهم ، أو لبيان عقوبة أهل النار أو شيء من عذابهم ، والأول مثاله قول النبي ﷺ :
" إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب السدي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم " قالوا : يا رسول الله : تلك منازل الأنبياء ، لا يبلغها غيرهم قال : " بلى ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين " (٣) .

(١) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - ط ١٢ - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٢ - ص ٢٤ .
(٢) ر. أحمد عبد الله طعي - مشاهد القرآنية في الحديث النبوي - ط ٢ - دار الفوائد - المنصورة - ١٩٩٢ - ص ٢١٨ .
(٣) فتح الباري ٦ / ٢١٨ .

فوقع التمثيل في قوله ﷺ : (كما يترأءون للكوكب الذي للعاير قسي الأفق ..) فهي صورة منتزعة من حياة القوم تعمل على الارتقاء بالنفس إلى الأفاق العليا حيث تغلبو السهم وتعلو معها درجات المؤمن في جنات ربه ، وهي صورة تجسد للسمع العبيبات في هيئة يراها ويتحسسها بكل جوارحه .. والتعبير بـ (يترأءون .. كما يترأءون) فيه تجسد لحركة الموقف، وأن الرؤية تأتيهم طواعية دون عناء أو مشقة ، ثم مثل سهولة الرؤية بما يمارسه القوم في حياتهم المألوفة من رؤية الكوكب العظيم ..

علي أن اختيار نوعية المشبه به تتناسب مع جو المشهد وطبيعة الموقف ، فلم يشبهه مثلاً برؤية أهل البيت أو من خلال ممارسات حياتهم الأرضية ، وإنما علا بهم إلى السماء واختار الكوكب الذي يعرف بـ بياضه وإضاءته ، وقيل لكونه أرفع من باقي النجوم ، وهي كلها صفات تزين أهل الجنة ويعرفون بسمتها .

• خامساً : الحدث والترغيب أو التحذير والترهيب :

وفي مواضع أخرى يأتي التشبيه التمثيلي في كلام النبوة مستخدماً مشاهد البيئة وواقع المجتمع ، من أجل الحدث والتحريض على فعل شيء والترغيب في العمل به ، أو من أجل الترهيب من فعل شيء والتحذير من عمله .
- ومن ذلك قوله ﷺ :

" مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " (١).

فوضع فريق البشر في مواجهة حاسمة عن طريق هذا الاستهلال بالمقابلة اللفظية والمعنوية ، فهياً الذهن لاستقبال حموى الحديث وحدثه ، وهي المقابلة التي ختم بسها الحديث

(١) فتح الباري / ١ / ١٥٧ .

أيضاً لتتفق البدائية مع النهائية ثم كان هذا التشبيه التمثيلي الدقيق الجامع المانع الذي وضع البشرية في سفينة الحياة ، فيما نجاه أو هلكا ، " وتدل هذه الصورة العظيمة علي أن الحرية الفردية ليست مطلقة ، بل هي محدودة بمصلحة الأمة ، فليس المرء حراً في أن يصنع ما يشاء من المعاصي ، لأن ذلك سيعرض كيان الأمة إلي الهدم والانهيار ، كما تدل علي أن فائدة الإنكار إنما تتحقق إذا كانت قبل استفحال المعاصي " (٢١)

فهذا ((تمثيل لحالة طائفة في (الأسفل) تعمل لرحمة من هم في (الأعلى) : عاطفة شريفة ولكنها سافلة ، وحمية ملتزمة ولكنها باردة ، ورحمة خالصة ولكنها مهلكة ؛ ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلادة الاجتماعية والغفلة الفلسفية لأناس هم أنفسهم أمثلة للجد والعمل والحكمة)) (٢٢) .

• ومما جاء من التشبيه التمثيلي من أجل الحث علي استنكار القرآن والترغيب في تعاهده قوله ﷺ : " إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعنقة ، إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت " (٢٣) .

فإن كلمة (صاحب) تقيد المصاحبة ودوام الألفة ، ويدل تكرارها علي ذلك ، فإن الرجل إذا دام مصاحبته لأبيه ، دامت الألفة بينهما ، فلا تنفر منه .. وقد رسم النبي ﷺ تلك الحالة من التألف بين الإنسان والقرآن بطول التعاهد والمدارسة ، بحالة صاحب الإبل في ذهابه وسجونه وحرصه علي إيساك إيله بالعقال المشدود ، وكيف إذا فرط في عقلها .. فالحفظ دائم مادام التعاهد موجوداً ، كما أن البعير محفوظ مادام مشدوداً بالعقال .

• ومما جاء من التشبيه التمثيلي من أجل للترهيب من المعصية والتحذير من الوقوع فيها قوله ﷺ :

(٢١) - محمد الصباغ - تصوير القرآني في الحديث النبوي - ١٥ - مكتب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٢ - ص ١٢٨ .

(٢٢) - قرطبي - وهي رقم - ٧ .

(٢٣) - فتح الباري ١ / ٨ - ١١٧ .

" إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدُّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَرْعُهُنَّ وَيَقْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا فَأَتَا أَخَذَ بِحُجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا " (١) .

فالمشهد يحمل لوحة فنية زاخرة بالألوان وحركة النار واضطرابها وطيران الفراش والدواب ، وتفاعل الصراع بين الخير والشر المتمثل في الدفع عن النار ومغالية الاحتحام فيها . وقد شبه النبي ﷺ الشريعة الإسلامية وتبليغها للناس باستنقاذهم من النار ، وشبه انتشار ذلك في الأرض بإضاءة تلك النار ما حول المستوقد ، وشبه إعراض الناس عن الشرع والدين وانكبابهم على غيهم ومنعه إياهم عن ذلك بأخذ حوزهم بالفراش والدواب التي تقع في النار ، وتعلن المستوقد على دفعهم عن الاحتحام ..

فكما أن ((المستوقد كان غرضه من فعله انتفاع الخلق به من الاستضاءة والاستنقاء وغير ذلك ، والفراش لجعلها جعلته سببا لهلاكها ، فكذلك كان القصد بتلك البيانات احتذاء الأمة واجتنابها ما هو سبب هلاكهم ، وهم مع ذلك لجعلهم جعلوها مقتضية لتريدهم)) (٢) .

- وقد جاء الكلام في بداية الحديث الشريف مجملا ثم فصل بعد ذكر التشبيه به ، فجاء التمثيل على سبيل اللف والنشر المرتب ، وهو ما يعرف بالتشبيه الملقوف .

• ومن بلاغة هذا الحديث الشريف :

- البدء بأسلوب القصير (إنما) للتوكيد على المعنى ، وهو الأسلوب المقتضي للمعنى والسياق .
- الإيقاع الموسيقي للتكرار : مثلي ومثل — كمثل ، وهذه الأدوات بتكرارها وتلاحقها من شأنها — أيضا — أن تصنع جوا من التخيل والتمثيل في صورة حية .
- قوله ﷺ : (ومثل الناس) ليشتمل كل الناس ويعمم بدعوته ، إذ إنه لم يرسل لفظة خاصة .

(١) فتح الباري ١١ / ٢٢٢ .

(٢) فسر السق ١١ / ٢٢٦ .

- قوله ﷺ : (قلنا أضاعت) ولم يقل : قلنا اشتعلت . لأن الضياء والإضاءة : قرط الإضاءة وهي المناسبة للمقام للإيجاء بنور النبوة وضياء الشريعة .
- فيقتحمن : توحى بسرعة تهافت الجهلاء في معاصيهم وإصرارهم على غيهم .
- قوله ﷺ : (قلنا أخذ بحجزكم) فيه التفات من الغيبة (مثل الناس) — وضمير الغالب في (يزعمون — يغلبونه) إلى الخطاب في قوله : (بحجزكم) .. وقوله (أخذ بحجزكم) على سبيل الاستعارة المكنية ، حيث مثل حالة منعة الأمة عن الوقوع في الهلاك بحالة ذلك الرجل الذي يأخذ بحجزه صاحبه لكي يمنعه ويحميه من الهلاك .

فهذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على حسن الاختيار ودقة التوجيه لإدراك المعساني في وضوح وإيجاز ، وهي ((المثل الأعلى للبلاغة العربية ، إذا كان كلام الله (كتاب) البيان المعجز ، فإن كلام الرسول ﷺ (سنة) هذا البيان وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد ﷺ وحده)) (١) .

• وربما ساق النبي ﷺ التشبيه للتمثيلي من أجل الإرشاد والحض على محاسبة النفس والترغيب في زيادة الإيمان والتهريب من الاستهانة بالمعصية .
” يقول ﷺ :

” إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا — قال أبو شهاب بيده فوق أنفه — ثم قال : لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهب راحلته حتى اشتد عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله ، قال أرجع إلي مكاتي ، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده ” (٢) .

(١) أحمد حسن الزيات — وهي الرسالة — ط — تهضة مصر — القاهرة — ١٩٦٤ — ج ٢ — ص ١٠٥ .
(٢) فتح الباري ١/ ١١٠ .

فذكر الحديث في المشهد الأول فريقين من الناس : المؤمن والفاجر ، فشبه الذنوب بالجبل الشاهق العظيم والمؤمن ينظر إليه في فزع خشية أن يقع فوق رأسه فيهلكه .. وعلي التقيصص من ذلك شبه ما يراه الفاجر من ذنوبه بالذباب ، فلا يبالي به بل يصرفه دون تورع أو مبالاة . وشبه فرحة الله بنوبة العبد بفرحة رجل أوشك على الهلاك في الصحراء بعد أن ضلت عنه راحلته ، وفقد الأمل في النجاة ، ثم هو تتجدد له الحياة برجوع راحلته فتأخذه النشوة وتملكه الفرحة ..

وقد ذكر النبي ﷺ الجملتين المؤكنتين : (إن المؤمن - وإن الفاجر) ، وكرر الأداة ليفصل شخصية كل واحد منهما عن الآخر ، فبرزت لهما إلى المعصية في وضوح وانفصال ((والعطف بينهما للتوسط بين الكماليين ، حيث عطف الجملة الخيرية على مثلها ، والحسن في تركيب الجملتين ظاهر ، حيث نرى اسم إن في الجملتين معرفة ، والخير جملة فعلية فعلها مضارع . وفي قوله : (لله أفرح بنوبة العبد) تأكيد لمعنى تقبل الله لنوبة عبده باللام ، واسمية الجملة ، وأفعل التفضيل ، والتعدير باسم المرة في قوله : (نام نومة) يدل على أن النومة ولو مرة واحدة مما ينبغي على الإنسان مراعاته وتجنبه)) (١).

• وقد جاء للتشثيل في المشهد الثاني بصيغة : (أفعل من) وهذا مما تنفرد به اللغة للعربية دون اللغات السامية الأخرى ، وهذا التعبير أبقى بهذا المقام وذلك المشهد ، وقد ((جرت عادة العرب على المبالغة في وصف الشيء)) واستخدموا لذلك صيغة (أفعل) لتعبر لهم عن ذلك ، وهي صورة من صور المبالغة فاشتهر عندهم من الأمثال قولهم : (أكرهم من حاتم .. أشأم من دلحس) (٢).

- وقد جاء التشبيه التشليلي في البيان النبوي من أجل الترغيب في أدائها والحث على المحافظة عليها .

(١) د. عبد الفتاح حسين - من بلاغة النبوة - ط ٢ - دار الثقافة - القاهرة - ١٩٨٦ - ص ٥٥ .

(٢) د. أحمد محمد علي - مشاهد فريدة في حديث النبوي - ص ٤٠٩ .

؟ يقول ﷺ :

” أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ، ما تقول ذلك يُبقى من درنه ؟ قالوا : لا يُبقى من دَرَنِهِ شيئاً . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله بها الخطايا ” (١) .

فقد أكد علي أدائها وجعل المعقول كالمحسوس وشبه علي جهة التمثيل ، حال من يحافظ علي أداء الصلوات الخمس ويقع في صفائر الذنوب ، فيظهر من ذلك القدر الإثمى بفعله لتلك الصلوات ، يحال من كان علي باب بيته نهر ، فيقوم بالاعتسال فيه كل يوم خمس مرات ، فتزول عنه الأوساخ ويصبح نقى البدن ، ” ومن التناسق الفني الجميل في الحديث أن يجعل المعصية وسخاً ودرناً تتكرر النفس السوية منه وتتفر ، والصلوات الخمس كتبر جار يغتسل فيه المرء خمس مرات كل يوم .. ” (٢) .

- وقد بدأ الحديث الشريف في بيانه بتقديم المشبه به في صورة واضحة جلية تظهر الهدف والمقصود منه ، وقد ساعد ذلك علي نقل الخيال إلي واقع حسي مشاهد ، وقد زاد من ذلك البدء بهمزة الطلب والمجيء بفعل الرؤية البصرية (أرأيتم) ، وفي ذلك تهيئة للمتلقي ((ليجمع شتات ذهنه ، ويخلص سمعه وعقله لكل ما يلي ذلك ، فهمزة الاستفهام هنا لها وظيقتان ، إحداهما مادية حددها البلاغيون بأنها طلب الفهم من السامع ، والثانية معنوية يجدها المتأمل في البيان المتذوق له وهي تنبيه المتلقي وتهيئته لتأنيبه المطلوب له)) (٣) .

فهذا التصوير الفني في البيان النبوي يبلغ أعلي درجات الإثارة الذهنية والاستحواذ علي الجنان ، وذلك بمخاطبة حواس الإنسان وإظهار جزئيات الصورة ومحاسنها في هيئة ملموسة بالجوارح ، تاركة أثرها العميق في النفس والقلب ، فيعمل هذا التخيل الحسي علي جعل الحقائق أشد قرباً للإنسان .

(١) فتح شري ١ / ١٤ .

(٢) محمد الصياغ - التصوير الفني في الحديث النبوي - ص ٣٠٠ .

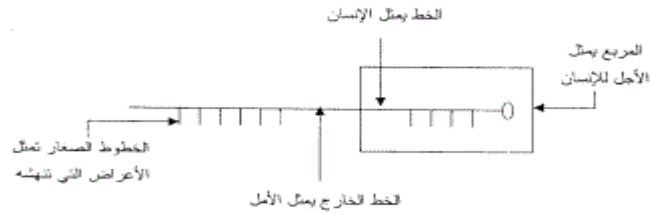
(٣) إبراهيم عروصين - نساكت في البيان النبوي - ط ١ - مطبعة المسافة - القاهرة - ١٩٨٠ - ص ٣١ .

- ومما جاء في التحذير من طول الأمل والترهب والزجر عن الانهماك في ملأ الدنيا ، قول عبد الله عليه السلام :

" خط النبي ﷺ خطاً مربعاً ، وخط خطأ في الوسط خارجاً منه ، وخط خططاً صغيراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به - أو قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغيرة الأعراض ، فإن أخطأ هذا نهشه هذا ، وإن أخطأ هذا نهشه هذا " (١) .

فقد اتخذ النبي ﷺ من الرسم الهندسي وسيلة للتصوير ، وهو بشوره وسيلة لتجسيد المعنى وبيانه في بساطته ووضوح ، فيظهر الإنسان وهو في معركة الحياة محاصراً بين الأوقات إن سلم من أفة لم يسلم من أخرى ، ولذا كان التعبير بقوله : " نهشه هذا .. نهشه هذا " يؤدي دوراً فعالاً في تصوير المعنى وتجسيده في صورة أفعى تلدغ وتنهش ، مبالغاً في تصوير الإصابة والإهلاك .

- ومن صفة هذا الخط :



وقد جمع الخطوط ثم اقتصر في التفصيل على اثنين اختصاراً ، والثالث الإنسان ، والرابع الأوقات (٢) .

(١) فتح مبري ، ١١ / ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ١١ / ٢١٢ .

• ثالثاً : الخصائص الفنية للتشبيه النبوي التمثيلي :

كان النبي ﷺ أبلغ العرب ، وهو أفصح من نطق بالضاد ، لا يجاريه في ذلك أحد من الخلق ، وقد عاش بهذا البيان الأكمل بين عمالقة البلاغة وأرباب الفصاحة الذين أتوا القدرة العليا على التصرف في تركيب اللغة ومفرداتها ، فلا تعجزهم عبارة ، ولا تحيرهم كلمة ، وهم على الرغم من ذلك يبهتون أمام بيانه ، ويفهمون من منطوقه .

ولم يسمع أحد بوائنه ﷺ ((إلا ولأخذ بروعته ، وطربت نفسه لبلاغته ، فإنه ليستعيد الحديث مرات فيحلو في نوقه ، ويتكبره فيزداد إعجاباً به لما يحويه من معان لا يتضمنها قول بلوغ لو أجهد نفسه وعناه ، وإيها لسليقة تفيض بينابيعها هذا البيان المعجز والقسول الرصين والعبارة الحلوة والديباجة الموشاة)) (١) .

• اللغة والأسلوب :

إن لغة البيان النبوي تسمو إلى الكمال الخالص من أسباب الضعف البشري ، الخالي من الاضطراب أو التشديق والتكلف ، وكيف يفعله وهو الذي ذمه في قوله ﷺ :
" إن أبغضكم إلي وأبعدهم مني مجالس يوم القيامة أساونكم أخلاقاً ، والثرثارون المشدقون المتفيهقون " .. حديث حسن ؛ رواه الإمام أحمد .

- وقوله ﷺ : " إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما يتخلل البقرة " .. حديث حسن . رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي .

فكانت ألفاظه ﷺ مأثوسة ((إلا حين يقتضي المعنى لفظاً يناسبه فيختار الرسول اللفظ الأقل ألفه ، ولكنه ينأى عن الغريب الوحشي ، وعن السوق المبتذل ، وألفاظه جزلة حين

(١) د. أحمد فقي - مشاهد العلماء في الحديث النبوي - ص ٢٨٩ .

يقتضي المعنى الجزالة ، رقيقة حين يتطلب المعنى الرقة ، وفي الحالتين هي واضحة للدلالة علي معانيها ، كل كلمة تعبر بدقة عن تمام معناها ، مستقرة في مكانها من الجملة)) (١) .

- ونقف مع حديث للنبي ﷺ يتحدث فيه عن رفع الأمانة من القلوب وقد ورد فيه التشبيه التمثيلي مؤلفا من كلمات لها دلالات وإحياءات من شأنها أن تضع السامع أمام مشهد حقيقي .
قال ﷺ :

.. " ينام الرجل للنومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوُكْت . ثم ينام النومة فتقبض ، فيبقى أثرها مثل المَجَل ، كجمر دَحْرَجَتْه علي رجلك فتَنُفِط ، فتراه مُنْتَبِرا وليس فيه شيء . فيصيحُ الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلا أمينا . ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجنده ، وما في قلبه مثقال حبة خَزْدَل من إيمان .. " (٢) .

فالأعمال السيئة لا تَزَال تضعف الإيمان ، حتى إذا تنافى الضعف لم يبق إلا أثر الإيمان ، وهو التثقل باللسان والاعتقاد الضعيف في ظاهر القلب ، فشبهه بالأثر في ظاهر البدن ، وكنى عن ضعف الإيمان بالنوم ، وضرب مثلا لزهو من الإيمان عن القلب حالا يزهو من الحجر عن الرجل حتى يقع بالأرض ، والوكت سواء في اللون ، وكذا المجل أثر العمل فسي اليد ، والمتنقط هو المنتبر ، يقال : انتبر الجرح وانتقط إذا ورم واستلأ ماء (٣) .

فرسم النبي ﷺ المشهد عن طريق تلك الكلمات المختارة لتعبر عن المعنى في قوة وجلاء فعبّر عن ضعف الإيمان بالنوم والنوم فيه الغفلة والغيبة عن الواقع .. وعبر عن رفع الأمانة بقوله : (فتقبض) فيتصورها الإنسان في هيئة حسية أو مادية .. ثم عمل علي إشارة الذهن بتلك المقابلة الخفية بين : [ينام الرجل النومة ..] وبين : [فيظل أثرها ..] ، لأن ظل تعنى النهار وما يتخلف علي صاحبه من سواد وأثر العمل في اليد .

(١) د. علي حساري - بلاغة الرسول ﷺ - دار المنار - القاهرة - ص ٢٢ .
(٢) فتح هادي ١١ / ٢٤١ .
(٣) فتح هادي ١٢ / ١٤ - ١٥ .

((والنتيجة اللافتة لهذا هو تحريك وعي المتلقي وتنشيط ذهنه لما بين الأشياء من تقابل أو تضاد فيقبل على البليغ في نقطة شعورية لفهم المضمون المعبر عنه من خلال الصيغ المشيرة للاهتمام والداعية إلى التأمل))^(١) .

- ولم يكن يعبر عن سرعة أثر الفعلة وقصر وقتها غير التعبير باسم المرة (النومة) ولذلك جاء بقاء السرعة في الموضعين (فقبض) ، وهي الفاء التي تكررت في هذا المشهد سبع مرات فساعدت علي رسم سرعته .

- ورسم مشهدا حسيا فيه طبيعة الحركة وشد إحراقها في قوله ^(٢) : (كجمر دحرجته على رجلك فقط فتراه منتيرا ..) ، فقط وانتير ترسمان صورة التورم في مشهد حسي منفر ، لا تعبر عنه كلمة تورم الجرح أو انتفخ مثلا ، ((إنه كلام كلما زدته فكرا زادك معنى))^(٣) .

وينتقل المشهد في ترتيب يتصاعد بخيال السامع من الأكل إلى الأكثر ، فنكر أولا أثر الوكت ، وهو الأثر اليسير من فعل النار .. ثم انتقل إلى الأكثر (مثل المجل) ، وهو غلط الكف من أثر العمل ، ثم إلى الجمر المنحرج .

وهو في ذلك أتى من الأفعال ما يناسب كل مرحلة ، ففي الأولى (فيظل) ، وفي الثانية (فيبقي) وفي الثالثة (فتراه) .. ثم المشهد المترتب على ما سبق ثمرة ونتيجة ، فعبّر عنه بقوله ^(٤) : (فيصبح) ، فكان ما سبق هو ما اعتراك فيه الرجل في ليل طويل مليء بظلام اللقن ، فكان هذا صباحه ، فالكلمات والأجمل * إذا نظمت وربت ذلك الترتيب المعين ، سرت فيها الحياة وعبرت عن مكنون الفكر وما يدور في الأذهان ، وليست اللغة في حقيقة أمرها إلا نظاما من الكلمات التي ترتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، تحتمه قوانين معينة لكل لغة^(٥) .

- ومن تنعيم المشهد قوله ^(٦) : (فيقال : إن في بني فلان رجلا أمينا) ، فهذا التقديم لخبر إن فيه إثارة واهتمام بشأن القبيلة كلها ، فهي تخلص تماما من الأمين إلا رجلا ، فكيف

^(١) د. عبد الفتاح عثمان - أبحاث في الصنعة والفن - القاهرة - مكتبة الشهاب - القاهرة - ص ٢١٢ .

^(٢) وفي نظم ٨ / ٢ .

^(٣) د. إبراهيم نيس - من أسرار اللغة - ط ٦ - مكتبة المصرية - القاهرة - ١٩٧٨ - ص ٢٢٥ .

يكون حالها ؟! فهذا التحريك للكلمات من مكانها إنما يساعد علي صنع هذا الخيال ، فإن ((الجملة العربية لا تتميز بحتمية في ترتيب أجزائها ، وبرغم ذلك ترك لنا النحو رتباً تحفظ بالنسبة لهذه الأجزاء ، والدول عن هذه الرتب يمثل نوعاً من الخروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الإبداعية))^(١) .

• ومن توظيف اللغة والأسلوب في التمثيل ، قوله **نظروا** :
 " إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة " ^(٢) .

صورة منتزعة من البيئة ، ومن خصوصيات العرب وما تعارفوا عليه في حمل أثقالهم ومعاناة أسفارهم ..
 وتظهر البلاغة اللغوية في الحديث في استخدام لفظ الإبل مع المائة ، فهي علي سبيل التأكيد واستهلال الحديث الشريف بأسلوب القصر (إنما) فهو يزيد المعنى تأكيداً آخر ..
 ((أما التعبير بقوله : (لا تكاد) ففيها زيادة المعنى وتصديق الواقع ، والتفني المطلق محمول علي المبالغة ، إذ لا يعدم وجود الكريم ، قال القرطبي : الذي يناسب التمثيل أن الرجل الجواد الذي يحمل أثقال الناس والحمالات عنهم ويكشف كربهم عزيز الوجود كالراحلة في الإبل الكثيرة))^(٣) .

• التصوير والموسيقى :

عندما تكون أدوات الصورة طيبة في يد المبدع ، فإنه يستطيع أن يوظفها في مهارة وتمكن لأداء فرضه وإبراز فكرته ، بل يستطيع بإحساساته ومشاعره أن يسلط تصويره علي الأشياء من حوله فيصنع من التناقضات نسفاً مرتباً مترابلاً في تلاصق صميم يعمل علي بعث عواطف النفس وتحريكها من مكانها ، ذلك لأن أنواع الصور تتفاعل داخل النص الواحد ((لتؤدي

^(١) . محمد عبد المطلب مصطفى - البلاغة والأسلوبية - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٩ - ص ٢١٨ .

^(٢) فتح هباري / ١١ / ٣١١ .

^(٣) فتح هباري / ١١ / ٣١٢ .

مهمتها في نقل عواطف الأديب إلينا ، ومن ثم انبعثت عواطفنا الكامنة والمقابلة لهذه الخيالات أو الصور ، فإذا صدقت عاطفة الأديب ، واقعيا أو فنيا ، كان الخيال رائعا ومؤثرا))^(١) .

• وفي الحديث الآتي نرى النبي ﷺ قد رسم صورة واقعية للتأكيد على التراحم بين المسلمين بقول رسول الله ﷺ :

" ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى " (٢) .

فقد اتخذ من الجسد أداة للتصوير وبعثا للخيال ، فربط بين جماعة المؤمنين والجسد ، ((والمشيبه والمشيبه به مفردان غير مركبين ولكن وجه المشبه مركب من حالة الترابط والتكامل التي تجعل الأجزاء كلها تعمل متساندة ، حتى إذا طرأ خلل على جزء واحد منها تسأثرت به سائر الأجزاء)) (٣) .

فاعتمد التشبيه على التمثيل والمحاكاة والرؤية البصرية (ترى) ، وأدى دورا فعالا في إبراز عنصر الجمال في التعبير ، قال القاضي عياض : ((فتشبيه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح ، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية ، وفيه تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطقة بعضهم بعضا)) (٤) .

• وقد سري في الحديث موسيقي هائلة تتناسب طبيعة الموضوع ورقته وألونه ، فنبعث للتواد والتراحم في النفس فالتراحم أمر قلبي إيماني ، والتواد أمر حسي حركي يظهر في السراور ونحوه ، والتعاطف فيه التفاعل والمعاونة ، فسمعنا أصواتا تنهادر ألفاظها وعباراتها إلى القلب في سهولة وانسياب ، موسيقاها لا صخب فيها ولا خفوت ، فالكلمات تتعاطف في عطف لغوي " تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم " تتألف مقاطعها وتتناسق أصواتها ، وقد شاع في جو المشهد

(١) د. أحمد سامي - الصورة بين البلاغة والفن - ط ١ - مكتبة - دمشق - ١٩٨١ - ص ٢٩ .

(٢) فتح الباري ١٠ / ٤٥٢ .

(٣) د. محمد مصطفى هاددة - علم البيان - ط ١ - دار العلوم العربية - بيروت - ١٩٨٩ - ص ٢٧ .

(٤) فتح الباري ١٠ / ٤٥١ .

صوت قوي يشير الانتباه من أثر تداعي ببيان الجسد استجابة لبعضه ، وذلك في قوله ﷺ
" تداعي " ..

ونلاحظ ذلك الإيقاع الداخلي للكلمتين : السهر والحمى .. فالسهر وعدم النوم ناشيء من
وجود الألم الذي يتضافر مع السهر لإيجاد الحمى ، " فهذا التنسيق للكلمات والعبارات الخالصة
من الغرابة والتكلف قد جعلها مؤثرة من عدة أوجه بفعلة واحدة مع أنها لا تعطى إلا حقيقة
واحدة ، مما جعل التصوير في نقله للمعاني يربط بدقة ومهارة بين أجزاء العبارة ، وبين
العبارة وما يجاورها من عبارات يروابط للشرط والصلة وحروف العطف " (١) .

• وصورة تصويرية أخرى مستوحاة من البيان والإشارة باليد ، يقول ﷺ :
" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وشبك بين أصابعه " (٢) .

فقد اتخذ من البيان أداة للتصوير وبعثا للخيال . وهذا الاستهلال (المؤمن للمؤمن) يشير
الذهن ويحرك العاطفة ، وكأنه جعل اللفظين متلاصقين في تجاور وتلاحم ، ليرسم تلاحق
البنيان وتلاحمه فيما بينه ، ثم تأتي الصورة الحسية للبيان وهو يقف في رسوخ يشد بعضه
بعضا ، وكلمة (البنيان) مع ما فيها من أصوات وحروف وحركة مد الألف تعطى جرما قويا
وقد زاد من شدته وقوته ، البناء الصوتي لـ : (يشد) لأن المراد بعث الصلابة والقوة في
الصف الإسلامي لتكون هذه هي صورة المؤمنين مع بعضهم .. ويربط النبي ﷺ هذا المعنى
الذي يريده بتمثيل آخر يظهر في حركة صامتة : (وشبك بين أصابعه) ..

• وهذا التمثيل الحركي جاء في موضع آخر حيث يتحدث عن كفالة اليتيم في قوله ﷺ :
" أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا . وقال بإصبعيه السبابة والوسطى " (٣) .

• وإذا نظرنا إلى هذه الأحاديث المابقة ، وجدنا دقة التصوير وإصابة المعنى .. فعندما كلن
المراد بتصوير المؤمنين مع بعضهم البعض في تعاون وتآلف ، اتخذ النبي ﷺ من الجسد أداة

(١) د. أحمد نقي - الله الذي جعلت أصواته وسنانه - هيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٢ - ص ٨٠ .

(٢) فتح الباري ٥ / ١١٩ .

(٣) فتح الباري ١٠ / ١٥٠ .

للتصوير ، لأن الجسد يمثل الروح التي تبعث في الإنسان الحياة ، والجسد يمثل مسرّان للمشاعر والأحاسيس ، وذلك من أسمى الأهداف التي أراد النبي ﷺ إثباتها ..

• وعندما كان المراد تصوير عظم أجر كافل اليتيم ومجاورته للنبي ﷺ في الجنة اتخذ من تجاور الإصبعين وشدة قربهما أداة للتصوير ، ولذلك لم يفصل بينه ﷺ وبين كافل اليتيم بفواصل لفظي في استهلاله للحديث ، فقال : (أنا وكافل اليتيم في الجنة) ، ولم يقل : أنا في الجنة وكافل اليتيم .. ولم يقل : أنا مع كافل اليتيم ، ولكنه قال : (أنا وكافل اليتيم) لما تصوّره الواو من الجمع والاشتراك .. فيبين من ذلك أنه ليس المراد بتبشير كافل اليتيم بالجنة فحسب ، ولكن تبشير بمجاورة النبي ﷺ في الجنة ، كما أن كلمة " كافل " وإضافتها إلى " ليتيم " تشيع في جو الحديث موسيقى هادئة وإيقاع نفسي مألوس ، ليناسب طبيعة الموضوع .

• التشبيه التمثيلي القصصي :

لما كان العرب أصحاب ذوق أدبي وحس بلاغي مرهف ، وألفوا الأسلوب القصصي في القرآن الكريم ، فقد استخدم النبي ﷺ هذا الفن الأدبي وسيلة للدعوة والتقريب للأفهام .. وعندما يأتي التشبيه التمثيلي من خلال الوعاء القصصي فإن ذلك البناء المحكم يُلقني بظلاله على خيال المتلقي ، فيجعله يعيش جو الحدث في واقع حقيقي متكامل البناء ، إلا أن القصة لا تنقل الواقع نقلاً حرفياً أو تصويراً ألياً ، وإنما تنقل الواقع من خلال خيال القصاص ، فالقصص مهمما كان واقعا لا ينقل الواقع طبق الأصل ، وإنما يحذف ويضيف فيه حسب إرادته الفنية .. والقصصون كثيرون ، ولكن الذي يخلده منهم هو الذي يستطيع أن يتغلغل في أعماق الأفراد وينفذ إلى كياناتهم الداخلي وما يرسب فيه من جواهر باقية على الأبد .^(١)

وتتشابك العناصر الفنية تشابكاً وطيداً من أجل إبراز الهدف والمعنى المراد .. وربما جاءت القصة معتمدة على السرد والخبر في إبراز الحدث ، فتتوارى الشخصيات وتتزوي لأن الحدث هو المقصود ، وربما كان الهدف من سياق القصة إبراز الأمة في صورة فردى من

(١) - شوقي ضيف - في النقد الأدبي - ط ٦ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨١ - ص ٢٢٨ .

الشخصيات التي تحمل أبعاداً شخصية مختلفة فتجد التركيز على محورها والاهتمام بإبرازها والكشف عنها في صورة واضحة .

وقد ظهر ذلك جلياً واضحاً في شخصيات عديدة ، على نحو ما مر من شخصية القائم على حدود الله والواقع فيها - أو شخصية الجليس الصالح والجليس السوء ، أو شخصية المنافق الذي تتدلّق أفتابه في النار ، وهي شخصيات تمثل نوازع النفس البشرية ، وتبرز ما تحمله من خصال خير أو شر ، ثم تبين مصيرها في الآخرة ، وهذه الشخصيات الواردة في تلك الأحاديث القصصية يمكن أن نسميها " للشخصيات الجاهزة " ، وهي الشخصية المكتملة التي تظهر في القصة - حين تظهر - دون أن يحدث في تكوينها أي تغير ، وإنما يحدث التغير في علاقتها بالشخصيات الأخرى فحسب أما تصرفاتها فلها دائماً طابع واحد " (١) .

وعلى الجانب الآخر " تصانف شخصيات معنوية تؤدي دوراً كدور الشخصيات من البشر ، تدبر حواراً مع الإنسان ويعرف الإنسان حقيقتها في إجابتها على سؤاله ، كسالم الصالح ، والموت الذي يذبح وهو علي هيئة كيش أملح يراء أهل الجنة وأهل النار وهو موقوف على الصراط " (٢) .

• أما الحوار فهو يأتي في ذلك القصص النبوي لخدمة الحدث وللشخصية والعمل على رسمها وإبراز انفعالاتها وما تنطوي عليه .. وقد أظهر الحوار فيما مضى من أحاديث شريفة أحداثاً ومواقف غريبة ، تحمل مشاهد اليوم الآخر ، فيجعل الحوار تلك المواقف والمشاهد ماثلة أمام العين ..

• وقد تميز الحوار في الأسلوب القصصي النبوي بالحيوية والوضوح ، فعمل على شد انتباه السامع ورسم الحدث متتابعاً في دقة ووضوح ، فيقبل المخاطب عليه في همة ونشاط ، تاركاً وراءه السأم والملل .

(١) - عز الدين إسماعيل - الأدب والفن دراسة نقدية - ط ٥ - دار الفكر العربي - ١٩٧٢ - ص ١٩٢ .
(٢) - أحمد الطي - مشاهد القصة في الحديث النبوي - ص ٣٨٦ .

ويجب أن " يحتوي الحوار الجيد علي صفتين أساسيتين هما : التركيز والإيجاز " وقد كان الرسول ﷺ يتخذ من الحوار أداة تعليمية يحرك بواسطتها أذهان الصحابة فيما يريد أن يتحدث إليهم فيه حتى يتمكن الحديث من أنفسهم فضل تمكن * (١) .

- وقد جاء الحوار في الحديث النبوي من عدة طرق ، منها :

(أ) أن يعمل النبي ﷺ علي إثارة أذهان الصحابة ، فيلقي إليهم سؤالا فينظر كيف يجيبون ثم يرشدهم إلي الصواب ، وذلك كقوله في الحديث السابق ذكره " أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ، ما تقول ذلك يَبْقَى من درته ؟ " قالوا : لا يَبْقَى من درته شيئا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا * (٢) .

(ب) ألا يبدأ بالسؤال ولكنه يبدأ بجملة خبرية تحمل غرابة وتحتاج إلي إيمان فكر ، فيقع المستمع في إثارة ذهنية وشوق إلي معرفة الحقيقة، ومما جاء في ذلك قوله ﷺ : " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنما مثل المسلم ، فحَثْثُونِي مَا هِيَ ؟ " فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت . ثم قالوا حَدَّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قال : هي النخلة * (٣) .

« أما الزمان والمكان فأغلب ورودهما في مشاهد القيامة وإبراز أحداث اليوم الآخر وتجليته مواقف ، ويمثل المكان الوعاء الذي يحمل الأحداث ، وكما مر بنا في حديث بيان صفة أرض المحشر ، حيث حمل الشهيد وصفا دقيقا ورسميا حسباً لأرض المحشر فوصفها بأنها بيضاء عفراء كقرصة النقي .

[١] - فرج سليم - في رحاب البلاغة النبوية - ط ١ - مطبعة القرطبا - المتصورة - ١٩٨٦ - ص ١٢٦ .

[٢] فتح الباري ١ / ١١ .

[٣] المصدر السابق ١ / ١٧٥ .

الختامة

وبعد هذه الوقفة اليسيرة التي أمسكنا من خلالها بذلك الثمر الطيب للبيان الرائق ،
نخلص إلى النتائج الآتية :

• عمل التشبيه التمثيلي في البيان النبوي علي تجسيد المعاني وإبرازها في صورة محسوسة
تزخر بالحياة والحركة ، فكان ذلك أبلغ في رسوخها في النفس وتأكيدا في الذهن .

• تحقق الغرض البلاغي من التشبيهات علي نحو دقيق، إذ لم يكن التشبيه هدفا في ذاته ، وإنما
وسيلة لإظهار الخفي من المعاني وسهولة إدراكها ، وقد أدى إلي تحقيق ذلك انطلاق التشبيه
كالمسهم المصيب لهدفه في قوة وتسام .. وكان التشبيه ينسج من ملامعة لفظية وجمل تركيبية
تناسب المعنى ، فاتفق المبني مع المعنى ، وكان كثيرا ما يعتمد علي الحواس للتوضيح والإفهام

• كانت الصورة التشبيهية منتزعة من البيئة ومعتمدة علي عناصر الطبيعة ، وقد ظهر ذلك
جليا في تمثيل المؤمن بخامة الأزرع وبالنخلة ، وتمثيل المجتمع بركاب السفينة ، وتمثيل الموت
بالكيش الأملح ، إلي غير ذلك مما ورد في الأحاديث السابقة .

• كانت أوجه الشبه أشهر وأعرف في المشبه به في كل الأغراض ، فجاءت واضحة متفككة
مع الذوق السليم غير مفاجية للطبع القويم ، وكانت أكمل وأتم عند إرادة تأكيد الصفات
وتقريرها في المشبه .

• كثر التشبيه التمثيلي في كلام النبي ﷺ في حديثه عن الغيبات والمعنويات التي لا يعلمها
المخاطب، ولهذا كان يقرنها بما استقر في أفئدتهم واختزنه نفوسهم ، وبما ألغوه واعتادوه ممّا
أدى إلي تقويم المعاني في النفوس ونقل المعقول إلي المحسوس في إيضاح قريب ، فالتشبيه
لكثر الفنون البيانية تأثيرا في النفس وتقريبا للفهم ، ولهذا كان عبد القاهر الجرجاني يطيل في
الكلام عن أسرار وفنه ، ويقدمه علي غيره من الفنون الكثيرة في كتابه أسرار البلاغة .